

بين الشك والابصار

الشاعر الايطالى «ليوپاردى»

« Léopardi »

١٧٩٨ - ١٨٣٧

للأستاذ خليل هنداوى

« أيتها الشريعة الجميلة ! أنت ستعيشين طويلاً معصومة من كل خطأ ، وإذا هاجنا الضلال نعوج اليك ونجد الحقيقة تحت رءائك ، ويدك وحدها تقودنا الى شاطئ السلام »

« ليوپاردى »

- ١ -

فى نفس « ليوپاردى » سكن الألم الممض والشك العنيف متجاورين . فجعلنا منه - فى العمر الذى يبسم فيه كل شيء - شاعراً يحمل للناس مقاطع الأحزان ، ونفائات الأشجان .

قضى أيامه الأولى يساوره الداء من ناحية ، والدرس والاعتزال ينهكان قواه من ناحية ثانية ، على أن الدرس برغم متاعبه كان ينفخ فيه روح النشاط فيهب ، ويحيى أهواءه النائمة فتحيا .

كان لوأله الكونت (مونالدو) شغف بالأدب ، يعوج الى مجالسه وندواته ، وقد بعثه شغفه هذا على أن يغرس فى ولده هذه الروح ، وأن يسهل له ادراكه . فكان أدبه الأول أدب إيمان وتقوى ، يتعصب لهذا الأدب ، ويحله من صدره أسمى مكان ، ويحسب من لا يؤمن به جاهلاً ، وهو القائل فى ساعات شكه وجوده « أيتها الشريعة ، انك ستعيشين طويلاً معصومة من كل خطأ ، وإذا هاجنا الضلال نعوج اليك ، ونجد الحقيقة تحت رءائك ، ويفر الضلال فرار الذئب من الراعى ، ويدك وحدها تقودنا الى السلام »

- ٢ -

كان الدافع الأول الى شك « ليوپاردى » هو سامه من كل

شيء فى بلده ، قال فى إحدى رسائله [لا تحدثونى عن «ريكانانى» اننى سأحب وطنى عند ما أغدو بعيداً عنه ، ماذا فى ريكانانى ؟ هل تنظرون ما أستطيع صنعه هنا ؟ فالكل يجهلوننى ، وأنا مؤثر الحياة فى هذا الوطن الذى لاتعرفونه بدون معجم جغرافى ، مستخف بكل شيء . الآن صنع الآله الوجود جميلاً ، والناس يصفون العظام فى كل الأنحاء ، وهناك كثيرون من الرجال يعدون بلهاء لأنهم جربوا أن يروا وأن يعرفوا ! الأرض مלאى بالعجائب]

وهكذا قضى أيامه الأولى مغترباً عن أبيه الذى دعاه مراراً وتكراراً الى العودة ، وهو يأبى ويصر على البعد اصراراً . كتب له أبوه ، « وما هى الحاجة الماسة التى تدعوك الى هجرة دارك وأهلك الى دار لا تتمتع فيها بمثل عطفي ورضاي ؟ » ولكن ليوپاردى كان يهمل كثيراً هذه الأسئلة ، وإذا أجاب أجاب بنفس ناقصة غاضبة نائرة ، وكتب الى أحد أصدقائه « لأسهل عليك أن تحرك الجبل من أن تدفعه (والده) الى صنع شيء من أجل » ثم يقول : « على أننى اخترت هذه المرحلة ؛ فلا آخذ منه شيئاً ، ولا أطلب شيئاً » وهكذا يغلب الكبرياء على ليوپاردى ويصبح شقاؤه شقاء جباراً .

أوى ليوپاردى الى الدرس يجد فيه لذته النفسية ، ولكن هل كان الدرس كله راحته من عنائه ، وهناءه فى شقاؤه ؟ كتب فى أحد كتبه يعبر عما يجد فى ساعة الدرس :

[إن سبب تعسسى هو عقلى ، اننى أظن أنكم تعرفون ، ولكنى أثق بأنكم تجهلون كيف يقتل العقل صاحبه الذى يحاول أن يفكر على غير ما يفكر به الآخرون ، عند ما لا يكون لهذا الصاحب من لهو غير لهو الدرس . . أما العقل فقد أعطانى ويعطينى أمثال هؤلاء الشهداء ، وبهذا وحده يفرض سلطته على ويكون سبب أذاتى . وسوف يقتلنى اذا لم أبدل خطتى ! ألا إن العزلة ما خلقت لمن يحترقون بأنفسهم ويدوبون بأنفسهم]

بلى ! ما كان أصدق ليوپاردى فى كلمته الأخيرة ! لأنه كان معبراً عن حالة نفسية هى فيه . فقد تسرب اليه الداء حتى أنهك قواه فشح ناظره وساءت صحته وركبته العلة إثر العلة . ووقر على

ليوپاردى صفحة مؤثرة كتبها في ليلة تحت أضواء القمر والنجوم المشعة ، ذاهبة نفسه في الليل العميق كل مذهب :
[وفي ذلك المساء كانت نافذتى مفتوحة ، وناظرى يتمتع في هذا الصفاء السماوى وشعاع القمر المتهادى . أرواح نسيماً عليلاً ، وأصغى إلى عواء الكلاب المتناوحة في مواطن قصية عني . نخيل إلى أن صوراً ترقى إلى نفسى وأن قلبى يتسلط عليه قلق غريب ، فتهتفت كمن أصابه مس ، طالباً رحمة الطبيعة التى خيل إلى أنها تسمعني . في هذه اللحظة ألقى أنظارى على ماضى ، فتجمدت من الخشية اعضائى ، وأنا لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن الناس أن يتحملوا الحياة بدون أوهام ولا أفراح ولا عواطف ، بدون خيال ولا هيام ، وبدون ما كان يملأ وجودى قبل عام ، ويجعلنى سعيداً برغم مخاوفى ، أما اليوم فأننى يابس كالقصبه ، لا عاطفة تتمشى في حنايا نفسى البائسة ، وقوة الحب الخالد المطلق قد ماتت وهلكت في العمر الذى أنا فيه .]

كم مرة ذكر ليوپاردى هذه الليلة العنيفة ! وكم مرة تمثلت له هذه الليلة وهو ينظر في المروج الفضية الهادئة يغمرها نور القمر وهو ينجلي وراء (الابنيين ، وقمم الألب الشاخنة) أوتيهادى على حضن البحر اللانهائى ، وسائق العجلة يردد أغنيته الحزينة ، مودعاً آخر شعاع النهار » ثم يردد الشاعر : [وهكذا يغادر الشباب الحياة ويتركها تخمد رويداً رويداً ، الاوهام الجميلة تتطاير مع الآمال التى كانت مساعدة للانسان ، ولكن أنتن أيتها الرواى التى ينحدر عنها النور ، أنتن لن يغشاكن الظلام طويلاً . . . ولكن حياة الانسان بعد فرار الشباب لن يلوئها شيء ، وستظل غريبة حتى النهاية . . . والقبر وحده هو الذى يضع حداً لليل عمرنا !]

وفي عام ١٨١٨ نظف الشاعر رأسه من كل شيء . طلق الايمان وودع الاوهام ، فبقى وحده وسط خرائب جسده وروحه ازاء عالم فارغ وتحت سماء من نحاس ، ومنذ ذلك العهد لم يتغن الشاعر إلا بأنشودة الشك التى رافقته حتى ودّع الحياة

— ٤ —

وأخيراً نزع عنه الشك العابس كل ايمان بالله والخلود والعناية ، فتلاشى منه كل شيء وانصرف عنه كل شيء ، فلا آله عنده غير

ظهره عبث الحياة فقال [إننى ناضج للموت] . ولكن الموت كان يرى هذه الثمرة غير ناضجة ، فتركها عشرين عاماً تنضج خلالها وتحمل من آلام الحياة ما ينوء بالجسارة حمله ، تأهلاً ضالاً في مسارب الشك ، مستجلياً الحقيقة كما استجلاها من قبله ، طالباً ما تعده من وصل ، ووعداً بالوصل علالة .

أما نظره الحادة وصوته المرنان وتآلق نفسه وكل تلك الملامح القوية التى مثلها — سانت بوف — قد تغيرت في أخريات أيامه وانما غيرها وقرالهم لا وقر الهرم ، واذا بليوپاردى كما يصفه (رانيرى) صديقه الوفى « ذو قامة مقوسة ، ولون أبيض مشرب بصفرة ، وجبهة مربعة عريضة ، وعينين زرقاوين ذابلتين ، وأنف دقيق ، ولهجة مبهمه جافة ، وبسمة ترافقها العذوبة والشقاء » وهو يكتب عن نفسه :

[وأخيراً أتعبتني تلك الأعوام التى قضيتها في الدرس وأودت بجسدى ، حتى لا يرجى لى شفاء غير الموت . وهكذا حطمت رجائى لأفهم أن الطرب لا يلائم قلبى . واذا ذاك وجب على أن أرتدى ثياب الحداد وأن أأخذ التشاؤم رفيقاً لى لا يمكن فصله عني إلى الأبد ، نظرت فألفيت أن حياتى لا يمكن أن تكون إلا تعسة ، ولكن هذا لم يبعثنى على اليأس ، فخبذا لو أن قواى تحملها بدون خوف وتحولها إلى شيء مفيد بعض الشيء]

وهكذا نستطيع أن ندرك أن أهم العوامل التى تألبت على هذا القلب فبدلت ايمانه شكاً معذباً إنما هى عوامل جسدية ونفسية تضافرت على نضاله ، وما فتئت تلح عليه وتنال منه ، حتى تركته لا يهديه الا شك ، ولا يقنعه الا جحود .

— ٣ —

في هذه العزلة الموحشة التى اختارها لنفسه ارتبط مع الأديب الايطالى (بيانرو جيوردانى) بصلات مودة متينة ، وكان نجم هذا الأديب متألقاً في سماء بلاده ، وهو ممن طرح القديم وأعلن شكه فيه ، وراقت له المذاهب الجديدة فأخذ بها ، فتمنى لو يرى ليوپاردى بعد أن سمع عنه الشيء الكثير ، فقصدته في عزله فقال اليه وأعجب به وكتب عنه « اذا كان دانتى نجمة صبح في سماء إيطاليا ، فان ليوپاردى هو نجمة مساءها »

الرجاء فينا؟ ألم نهلك نحن جميعاً؟ اننى محطم لا أملك أية قدرة أجابه بها الشقاء، أما المستقبل فهو جهنم فى عيني، والذي أتبينه هو الذى يريى الأمل حلاماً أو جنوناً]

لهجته - أينما سعدت - مبطنة بالكآبة العميقة التى لا يخفف منها مجد ولا علاء. يُسألُ عن الرجل العظيم فيقول « هو اسم سرعان ما يصبح كاللاشيء. ان فكرة الجميل تتبدل دائماً مع الزمن. فالمسائل العلمية سرعان ما يتفوق عليها غيرها وتصبح نسياً منسياً، وإن أدنى رجل رياضى منا يعرف أكثر مما يعرف (غاليلو نيوتن) فالمجد ماهو إلا خيال، والبراعة التى تكون مكافأة للمجد ليست إلا حاضراً مشؤوماً لمن يتقبلها » ثم يتكلم عن دانتى ويقول . « وعلى هذه الأرض القبيحة لم يؤثر إلا الجحيم، وأى منزل فى الحقيقة لا يفضل على منازلنا الأرضية، ان الشقاء الذى يؤلنا هو أقل ثقلاً وأقل شراً من السأم الذى يخنقنا. ألا أيها السعيد، أنت الذى حياتك فى بكائك » وينظر ليوباردى الى المستقبل نظرة سوداء ويعتقد أن الأجيال تسفل ولا ترتقى، ويسخر من المتأملين فى تسامى الأحفاد

هنالك راع يخطر على قمم جبال (حملايا) متكئاً على عصاه يطيل التأمل فى السكون المحيط به، وينظر الى القمر الهائم مثله فى السماء فيسأله: [قل لى أيها القمر! ما قيمة حياة الراعى، وما قيمة حياتك أنت؟ بل ما قيمة حجبى الفقير وسراك الأبدى؟ أنت أيها المسافر المنزل الخالد والملك المفكر، ربما تفهم أنت حياتنا وآلامنا وتهداتنا، وربما تفهم الموت والصفرة السامية، وسفر الأرض ووداع الصداقات الجميلة. انك بلا شك تفهم أسرار كل هذه الاشياء ولكنى لأفهم ولا أعرف إلا شيئاً واحداً. ليأخذ البعض من هذه الحياة خير ما فيها، يستنقذونه من ثوراتها الهوجاء ومن كائناتها الضئيلة. قد يمكن لهم ذلك. ولكن الحياة هى شر من اجلى]

وهل فى هذه القطعة إلا اليأس من الحياة والكفر بها فى شعر جميل ما

« يتبع »

الطبيعة، تلك القوة العمياء التى لا تُدرك، يسألها عن سر الاشياء فتجيبه « وأنا طائعة للمقادير، أما أسباب الاشياء فهى ألغاز، لأنا ولا أنت نستطيع ادراكها، فالأجدر ببنى الانسان أن يصرفوا عيونهم عن هذه الألغاز التى تُقلقهم، فان حلها كلما خُيِّلَ اليها انه صار قريباً زاد عنا بعداً »

لننظر ما هو الايمان الجديد الذى اعتنقه الشاعر فى بعض مقطوعاته (مومياء تُبعث) بحثاً مقيداً بلحظة زمنية، يسألها فيها « كيف ماتوا وماذا وراء الموت؟ ولكنها تجيب « اسكت! لم يحن وقت الجواب... » وهكذا تكرر هذه اللحظة، وتعود المومياء الى رقادها الأبدى.

وهناك مقطوعة صغيرة تدور حول رجل (ايزلاندى) فَرَّ فى الأرض على وجهه من الطبيعة، ولكنه تلاقى معها فى وسط الصحراء، فألح عليها بأسئلة كثيرة منها هذا التأنيب:

[لماذا قذفت بى فى هذا العالم دون استشارتى، ولماذا بعد ايجادك لى لم تشغلى نفسك فى؟ فما هى غايتك؟ وما عسى تبتغين؟ وماذا تريدن؟ هل أنت لئيمة أم عاجزة؟]

فأجابه الطبيعة: بأن ليس لها الا سأم واحد وواجب واحد أن تُدير دولاب العالم دورة واحدة يناعى فيها الموت الحياة، والحياة الموت. وإذ ذاك سألها الرجل « ومن عسى يتهيج بحياة هذا العالم الذى لا يبقى ولا يدوم إلا بموت كل الاجزاء التى تؤلف عناصره؟ ولكن الطبيعة لم تجشم نفسها عناء الجواب... وإذ ذاك انقض أسدان جائعان عليه فالتهماه فهوى هيكله على التراب منتظراً أن يسقط كلاهما بدورها على رمال الصحراء.

السكوت هو الجواب البليغ على هذه الأحاجى والاسرار، لأن المستقصى عنها لن يرى إلا جداراً يعثر به ويدفعه الى الوراء، وإذا سار فلن يسير إلا فى صحراء لا يجد منها مخرجاً.

لم يختار ليوباردى شيئاً من حياة المستقبل ولا الحاضر، ولم ينظر الى مستقبل الانسانية، ولم يجرب أن يقف هوام على شىء فى الحياة، واذ أراد أن يمجّد وطنه فلن يرى شيئاً جديراً بالتمجيد إلا ذلك الماضى، أما الغد فهو لا يؤمن به

[أيها الأسلاف العظام، ألا تزالون تصونون لديكم شيئاً من